تحوُّلات الخطاب الصهيونيّ حول المسجد الأقصى المبارك

مهنّد مصطفى

رافق المشروع الصهيونيّ، منذ بدايته حتّى الآن، ثلاثة مسارات من التوتّر في التعامل مع المسجد الأقصى المبارك. الأوّل: التوتّر الشديد بين التيّار الدينيّ الأرثوذكسيّ الذي أراد الحفاظ على نقاء المقدَّس الدينيّ في وجه الدنس الصهيونيّ، وذلك من خلال الابتعاد عنه (أي المقدَّس) تعزيزًا لقداسته، والتيّار الصهيونيّ الذي أراد الاقتراب من المقدَّس الدينيّ من خلال عَلْمَنته. وهذا التوتّر إلى درجة الصراع لا يزال حاضرًا حتّى الآن بين التيّارَيْن في ما يتعلّق بالمسجد الأقصى المبارك. أمّا المسار الثاني، فهو حالة التوتّر بين التيّارِ الصهيونيّ القوميّ الذي يريد الحفاظ على عَلْمَنة المقدَّس، والتيّارِ الصهيونيّ الدينيّ الذي يحاول تحريره من علمانيّته واستعادته وإرجاعه إلى موقعه المقدَّس، من خلال الاقتراب منه كمقدَّس دينيّ نقيّ بعد نفي حالة العلمانيّة عنه، والاقتراب منه يرمي إلى الابتعاد عن المشروع الصهيونيّ السياسيّ بتحويل "هار هبايت" إلى مركز الخلاص الدينيّ المسيانيّ، بعد تآكل المنظومتَيْن المسيانيّة والكولونياليّة معًا في أعقاب اتّفاق أوسلو الذي جرى بموجبه تسليم أجزاء من "أرض إسرائيل" إلى سلطة فلسطينيّة، أدّى هذا الانسحاب من مناطق فلسطينية إلى تآكلِ المشروع السياسيّ الكولونياليّ في السيطرة على أرض إسرائيل، كما أراد اليمين القوميّ، وتآكلِ المشروع المسيانيّ الدينيّ الذي رأى في حرب 1967 مرحلة أخيرة من الخلاص الربّانيّ كما نظّر لها التيّار الدينيّ الصهيونيّ (نحو: چوش إيمونيم). استعادة المقدَّس وتحريره من العلمنة كانا يهدفان إلى تجديد الخطاب المسيانيّ، وكان المسجد الأقصى مركز هذا التجديد بعد أن كانت الأرض تعبيرًا عنه. فالأرض تَجْمَع القوميّ والدينيّ، بينما ينحصر الدينيّ في المقدَّس النقيّ؛ وإذا خذلت الأرض المشروع المسيانيّ لأنّه جرت علمنتها، فإنّ المقدَّس النقيّ يأبى العلمنة أو هو قابل للتحرّر منها. وهنا يظهر الفرق بين التيّار اليهوديّ الأرثوذكسيّ والصهيونيّ الدينيّ، ففي حين رفض الأوّل علمنة المقدَّس من خلال الابتعاد عنه، رفض الثاني عَلْمَنة المقدَّس من خلال الاقتراب منه.

ويتجلّى المسار الثالث في التوتّر الحاصل بشأن مركز المنظومة المسيانيّة داخل التيّار المسيانيّ الصهيونيّ الدينيّ نفسه؛ ففي حين وضعت المسيانيّة الدينيّة الصهيونيّة، بعد حرب 1967، الأرضَ في مركز الخلاص النهائيّ لشعب إسرائيل (شعب إسرائيل بمفهومه الدينيّ لا القوميّ)، وحوّلتها بذاتها إلى مقدَّس دينيّ، وحيّدت "جبل الهيكل" من منظومتها المسيانيّة أو أرجأته، نشأت مسيانيّة صهيونيّة دينيّة جديدة في عَقد التسعينيّات تعمل على وضع "جبل الهيكل" في مركز المنظومة المسيانيّة، والأرض تحوّلت إلى أطرافها. وقد أسهَمَ اتّفاق أوسلو وما تبعه في تعزيز هذا التوجّه المسيانيّ.

لحظة 1996:

في شباط عام 1996، أصدرت لجنة حاخامات مجلس المستوطنات، وأعضاؤها هم حاخامات المستوطنات في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة، فتوى دينيّةً تنصّ على الدخول إلى المسجد الأقصى، بل توصي بذلك. وقد طالبت الفتوى كلّ حاخام أن يدخل هو بنفسه المسجد الأقصى المبارك لكي يفقّه أتباعه بتعاليم الطهارة، ويبيّن لهم كيف يمكن الدخول والصلاة حسب تعاليم الشريعة اليهوديّة.[1] ويشير عنباري أنّ الخطوات العمليّة لهذه الفتوى جاءت في أعقاب الانتفاضة الفلسطينيّة الثانية التي اندلعت من المسجد الأقصى، فبعد إغلاق المسجد أمام اليهود لمدّة ثلاث سنوات (2000-2003)، ازدادت أعداد اليهود من أبناء المدارس الدينيّة الصهيونيّة الذين توافدوا إلى المسجد الأقصى للزيارة والصلاة الفرديّة الصامتة، وحسب معطيات الشرطة فقد دخل المسجد الأقصى، منذ تشرين الثاني عام 2003 حتّى تشرين الأوّل عام 2004، ما يقارب سبعين ألف يهوديّ (70,000).[2]

ما الذي حدث عام 1996؟ وما الذي دفع حاخامات من الصهيونيّة الدينيّة إلى إصدار مثل هذه الفتوى، على الرغم من التحريم والمنع الدينيّ الصارم من دخول المسجد والصلاة فيه، كما تجلّى الأمر في موقف التيّار اليهوديّ الأرثوذكسيّ، وكذلك في التيّار الصهيونيّ الدينيّ. ولا بدّ من الإشارة في هذا الصدد أنّ بنيامين نتنياهو فتح نفقًا تحت المسجد الأقصى في ذاك العام نفسه، أدّى إلى اندلاع انتفاضة النفق الفلسطينيّة، ومن الصعب الجزم بما لدينا من قرائن أنّ هنالك علاقة مباشرة بين فتوى الحاخامات وفتح النفق سوى العلاقة الكرونولوجيّة بينهما؛ فالفتوى سبقت فتح النفق، والأخير جاء بعد صدور الفتوى. وفي ذاك العام نفسه، بدأت الحركة الإسلاميّة داخل الخطّ الأخضر بمشروعها "الأقصى في خطر" عبْر مهرجانها الأوّل في تشرين الأوّل عام 1996، وانطلاقة هذا المشروع في خطابها وعملها السياسيّين.

جاء احتلال المسجد الأقصى المبارك عام 1967 بداية تغيير في الصهيونيّة؛ فالصهيونيّة بوصفها حركة علمانيّة استطاعت علمنةَ الدين والسيطرة عليه رغم هيجانه فيها، كالبركان المليء باللهب والحِمم لكنّه غير قادر على الانفجار، جاء احتلال القدس والمسجد الأقصى وسائر المواقع الدينيّة في الضفّة الغربيّة إلهابًا لهذه الحِمَم. حتّى عام 1967، استطاعت الصهيونيّة العلمانيّة التحكّم بلهيبها الداخليّ، بسبب ابتعادها عن هذه المواقع، وبذلك روّضت التصوُّرات المسيانيّة، التي عَلْمَنَت ذاتها بذاتها في إطار الصهيونيّة الدينيّة التي اعتبرت أنّ الخلاص هو فعل بشريّ خاضع لقوانين التاريخ والجغرافيا. خمسة عقود مرّت على احتلال المقدَّسات، ويمكن الادّعاء أنّ الصهيونيّة ضعفت أمام قوّة الجذب المسيانيّة، وقد حذّر باحث الصوفيّة اليهوديّة جِرْشُم شالوم من خطر العودة الفيزيائيّة إلى موقع الهيكل. وكما يشير باحث الفكر الدينيّ اليهوديّ، تومِر پرسيكو، فإنّ هاجس يشعياهو ليڤوڤيتش كان الخطر المحْدق بأخلاقيّة المجتمع الإسرائيليّ من احتلال شعب، بينما كان يخشى جِرْشُم شالوم من شيء آخر، خطر دخول جبل الهيكل إلى السياسة الإسرائيليّة، وضعف الصهيونيّة في الوقوف أمام المقدَّس الجديد وقوّته المسيانيّة.

وجاءت تخوّفات شالوم في مكانها، فبعد الاحتلال قال حاخام دولة إسرائيل (وهو بمنزلة مفتي الجمهوريّة في الدول العربيّة)، يتسحاق نيسيم، إنّه لا يجوز الانسحاب، لا من الأماكن الدينيّة اليهوديّة المقدّسة فحسْب، مثل

[1] عنباري، موطي. (2007). **الأصوليّة اليهوديّة وهار هبايت**. القدس: الجامعة العبريّة. ص. 1.

[2] المصدر السابق.

هار هبايت (الحرم القدسيّ الشريف)، والجدار الغربيّ (حائط البُراق)، بل "لا حقّ لأيّ شخص في إسرائيل، بمن في ذلك حكومة إسرائيل، أن تعيد حتّى ذرّة أرض واحدة داخل حدود أرض إسرائيل الواقعة تحت سيطرتنا".[3] بالإضافة إلى حاخام إسرائيل، صرّح حاخام الجيش شلومو چورن أنّ الانتصار كان تعبيرًا عن إرادة الربّ،؛ وبعد الحرب، جاب حاخام الجيش الأراضيَ المحتلّة مخاطبًا الجنود بقوله إنّ دولة إسرائيل موجودة بقوّة الإرادة الإلهيّة التي لا يمكن الاستئناف عليها، والجيش يحقّق نبوءات آخر الزمان لأنبياء إسرائيل، وحاول چورن -دونما نجاح في بداية الاحتلال- تنفيذَ السيطرة اليهوديّة الفعليّة على الحرم القدسيّ الشريف. ويُعتبر چورن الشخصيّةَ الدينيّة المركزيّة التي بدأت بإدخال المسجد الأقصى في المنظومة المسيانيّة الدينيّة الصهيونيّة، على الرغم من أنّه كان يشغل منصبًا رسميًّا في الجيش الإسرائيليّ.

بعد الاحتلال الإسرائيليّ، حاولت جهات دينيّة وعلى رأسها حاخام الجيش الإسرائيليّ، شلومو چورن، السيطرة الفعليّة على المسجد الأقصى. فبعد حصول الاحتلال، رفع الجنود الإسرائيليّون العلَم الإسرائيليّ فوق قبّة الصخرة المشرَّفة، إلّا أنّ موشيه ديان أمرهم بإنزال هذا العلم. كما أصدر مجلس الحاخامات المركزيّ الرسميّ بعد انتهاء الحرب قرارًا بعدم السماح لليهود بالصعود إلى المسجد الأقصى، وسوَّغَ موقفه بمبرّرات دينيّة، مثل الادّعاء أنّه يتخوّف أن يخطئ اليهود في تحديد موقع الهيكل بدقّة، وقد انسجم هذا المبرّر الدينيّ (الذي أخذ بالتآكل خلال عقود الاحتلال) مع سياسة الحكومة التي دعت اليهود للصلاة جنب الحائط الغربيّ للمسجد الأقصى، الموسوم يهوديًّا بحائط المبكى، وذلك خشية أن يؤدّي صعود اليهود إلى الحرم القدسيّ إلى إشعال حرب دينيّة في المنطقة. بَيْدَ أنّ أوّل ما فعله چورن كان ترسيم مكان "جبل الهيكل" بناء على دراساته التوراتيّة، وحدّد أماكن الصلاة فيها، واستعان في ذلك بسلاح الهندسة في الجيش الإسرائيليّ، وأفتى ببناء كنيس يهوديّ في أماكن موازية للمساحة التي حدّدها.

وقد أمرت الحكومة حاخام الجيش شلومو چورن بالكفّ عن محاولاته السيطرة على الحرم القدسيّ الشريف. فقد كتب بن چوريون رسالة إلى آبا إيڤن، وزير الخارجيّة الإسرائيليّ آنذاك، جاء فيها أنّ "الحاخام چورن يعتقد، على ما يبدو، أنّ الربّ يختبئ في مسجد عمر"، وأكّد أنّه يستطيع الصلاة جنب الجدار الغربيّ؛ فقد خشي بن چوريون، الذي لم يكن في مكانة رسميّة وقتذاك، أن يؤدّي الصعود إلى الحرم القدسيّ الشريف إلى تصعيد التحريض الدينيّ على إسرائيل، وقد وافقه إيڤن الرأيَ.[4]

[3] سيچف، توم. (2005). **1967: والأرض غيّرت وجهها**. تل أبيب: منشورات كيتر. ص. 576.

[4] سيچف. مصدر سابق. ص.ص. 577-576.

شكّل المسجد الأقصى المبارك موضوعًا مركزيًّا في خطاب المستوطنين، وشكّل الحاخامات اليهودُ المستوطنون الوقودَ الأيديولوجيّ والثيولوجيّ للاستيطان والمستوطنين في الأراضي الفلسطينيّة، وكانت تصريحاتهم وأوامرهم تسبق في أولويّتها تشريعاتِ الحكومة وأوامرَ الجيش لدى المستوطنين من أبناء الصهيونيّة الدينيّة. ومن هذه التصريحات نذكر -على سبيل المثال- تصريح الحاخام شلومو أڤنير، الحاخام السابق لمستوطنة "بيت إيل"، وحاليًّا حاخام عطيرت كوهنيم، وهي مستوطنة تابعة إلى مجموعة متطرّفة تدعو إلى بناء الهيكل مكان المسجد الأقصى المبارك، إذ طالب بمزيد من التوسّع الإقليميّ يتعدّى الحدود الحاليّة للأراضي المحتلّة، قائلًا: "حتّى لو كان هناك سلام، علينا أن نشعل حروب التحرير لغزو أجزاء أخرى من أرض إسرائيل" (قاصدًا الأردن).[5]

يشير عنباري أنّه منذ منتصف الثمانينيّات بدأت في الظهور مساعٍ حثيثةٌ لطرح مسألة المسجد الأقصى المبارك على أجِنْدة الخطاب الاستيطانيّ، وتمثّل ذلك في إقامة "معهد الهيكل" عام 1984، وحركة إقامة الهيكل عام 1987، وإطلاق سراح يهودا عتصيون، عام 1989، وهو الذي كان ناشطًا في التنظيم اليهوديّ الإرهابيّ، والذي قتل وحاول أن يقتل مدنيّين وسياسيّين فلسطينيّين. أدّت هذه التغيُّرات إلى تكوُّن ضغط جماهيريّ وُجّه للمطالبة بالسماح لليهود بدخول المسجد الأقصى. تُشكِّل هذه المسألة تحدّيًا دينيًّا - شرعيًّا وتحدّيًا سياسيًّا، حيث لم يَسمح الكثير من الحاخامات اليهود بدخول اليهود إلى المسجد الأقصى المبارك لأسباب دينيّة، ووُجِّه هذا الطلب بالأساس إلى حاخامات الصهيونيّة الدينيّة ومستوطِني حركة "چوش إيمونيم".

وهكذا، بدأت مواقف ناشطي حركات إقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى تسيطر على حاخامات المستوطنين، وكذلك ظهرت مواقف دينيّة في صفوف المستوطنين تشير أنّ الانسحابات، تلك التي قامت بها حكومة إسرائيل في الضفّة الغربيّة، جاءت كعقاب ربّانّي على ابتعاد اليهود عن المسجد الأقصى الذي طالبت به فتاوى الحاخامات حتّى الآن. ففي تصريح أدلى به يسرائيل روزين، رئيس معهد "تسومت" (وهو أحد المعاهد التي تهتّم بصعود اليهود إلى المسجد الأقصى وإقامة الهيكل)، قال فيه "إنّ الانسحاب الأوّل [الانسحاب من أريحا عام 1994] جاء بسبب غياب السيادة الإسرائيليّة الفعليّة على "هار هبايت"، فغياب هذه السيادة أدّى إلى خسارة السيطرة الإسرائيليّة على أريحا". أمّا الحاخام دوڤ ليئور، حاخام مستوطنة كريات أربع ومن القيادات الدينيّة البارزة للصهيونيّة الدينيّة والمستوطنين، فقد قال في السياق نفسه، "نحن الذين

[5] مقتبَس لدى: مصالحة، نور. (2003). "الاستيطان التبشيريّ–اليهوديّ والفلسطينيّون: السياسة الجغرافيّة، المستوطنات، المؤسّسات والثقافة لدى چوش إيمونيم". لدى: أسعد، غانم. (محرّر). **الهُويّات والسياسة في إسرائيل**. رام الله: مركز مدار. ص. 131.

نؤمن بالجزاء والعقاب والعناية العليا، علينا أن نعلم أنّ أحد الأسباب المركزيّة التي نتعذّب بسببها هو اللامبالاة الكبيرة في صفوف أجزاء كبيرة من شعبنا تجاه هار هبايت عمومًا وبناء الهيكل خصوصًا".[6]

أسهمت نشاطات المستوطنين وخطابهم بشأن تهويد الحرم القدسيّ الشريف، والطلب الحثيث على صعود اليهود إلى باحات المسجد الأقصى، وطالب قسم آخر منهم ببناء الهيكل، أسهمت هذه كلّها في ازدياد تأييد الشارع اليهوديّ لهذه المطالب. ويُعتبر ذلك جزءًا من تغلغل مَطالب مجتمع المستوطنين إلى المجتمع الإسرائيليّ.

خلاصة:

جاءت فتوى حاخامات المستوطنين عام 1996 تعويضًا عن تآكل المنظومة المسيانيّة التقليديّة. وتنبع أهمّيّة هذه الفتوى من أنّها لم تحكم على نفسها أو استمرارها بسياقات ولحظات تاريخيّة مرّت بها إسرائيل بعد ذلك، مثل اندلاع الانتفاضة الأولى، التي انطلقت من الأقصى، وزيادة التوتّر حول المسجد الأقصى، كما لم يردعها خروج الأرثوذكسيّة اليهوديّة ضدّها، وتحميل حاخاماتها مسؤوليّة الدماء والإخلال بالأمن والنظام العامّ لمؤيّدي دخول وصلاة اليهود في المسجد الأقصى. لماذا نقول ذلك؟ في عام 1991 أصدر حاخام "حباد"، ميلوڤيڤتش، فتوى لمريديه وتلامذته بالاستعداد للاحتفال في المسجد الأقصى، وشكّلت فتواه ثورة دينيّة في الأرثوذكسيّة اليهوديّة، إلّا أنّه تراجع عنها عندما اندلعت أحداث الأقصى في العام نفسه، الأحداث التي قُتِل فيها مسلمون برصاص قوّات الشرطة والأمن، واعتَبر أنّ الحفاظ على دماء اليهود والأمن العامّ أهمّ من صلاة اليهود في المسجد الأقصى المبارك.

التحوُّلات في الصهيونيّة الدينيّة أفضت إلى مركزة المسجد الأقصى في الفكر الخلاصيّ. في استطلاعٍ أُجْرِيَ في صفوف أبناء الصهيونيّة الدينيّة، عبّر سبعون في المئة (70%) من بينهم عن رغبتهم في دخول المسجد الأقصى. لم يَعُدْ من يَدْعون إلى ذلك يوصَمون بالجنون، بل باتوا تيّارًا مركزيًّا في الصهيونيّة الدينيّة.[7] لم تؤثّر هذه التحوُّلات على خطاب الصهيونيّة الدينيّة فحسب، بل أثّرت كذلك على الخطاب السياسيّ عمومًا. قبل الأحداث الأخيرة في القدس، والهبّة الشعبيّة، أيّد الكثير من أعضاء الليكود ووزرائه تغييرَ الوضع القائم والسماحَ لليهود بالصلاة في المسجد الأقصى المبارك. وقد انضمّ ناشطون مركزيّون في موضوع المسجد

[6] المصدر السابق، ص 27.

[7] كَرْني، إلداد. (28،2015 تموز). كيف تحوّل جبل الهيكل، إلى جزء لا يتجزّأ من النقاش العامّ. معاريف.

الأقصى إلى حزب الليكود للتأثير من الداخل على توجُّهات الليكود بشأن تغيير الوضع القائم، نحو موشيه فيچلين، ويهودا چليك، وغيرهما. لقد تغلغل الفكر الصهيونيّ الدينيّ إلى الليكود اليمينيّ المحافظ.

يشير النقاش حول مركزيّة المسجد الأقصى، بين تيّار السيادة السياسيّة وتيّار الخلاص الدينيّ في المشروع الصهيونيّ، إلى تآكل مفهوم الهُويّة الإسرائيليّة وصعود الهُويّة الدينيّة. إنّ انشغال أعضاء الليكود القوميّين بموضوع المسجد الأقصى نابع من الرغبة في تجديد الهُويّة القوميّة؛ إذ يطمح هؤلاء إلى التأكيد على الطابع الإثنيّ اليهوديّ في المجتمع والدولة، وبخاصّة بعد تشريع قانون القوميّة، وهو يشبه أحزاب اليمين المتطرّف في أوروبا التي تسوّغ منظومتها الأخلاقيّة من خلال المرجعيّة الدينيّة؛ فقد تحوّل المسجد الأقصى ("جبل الهيكل") إلى قوّة جاذبة قوميّة ودينيّة في مشروع اليمين.